

بسم الله الرحمن الرحيم

## أثر الحضارة الإسلامية علي أوروبا في مجال التعليم والجامعات

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

لقد عني الإسلام بالعلم كثيرا وفضل العلماء على العباد ، وحث على طلب العلم ودعا إلى التفكير في الكون ، وتوجد آيات وأحاديث كثيرة تدل على ذلك دلالة واضحة لا غموض فيها ، وإني لست هنا بصدد بيان أهمية العلم وفضله ومكانته في الإسلام ، فهو لا يخفى على طلاب العلم والباحثين والعلماء ، ولكني أريد أن أقول أن الإسلام وموقفه تجاه العلم والعلماء هو السبب الأول والأخير والأساس وراء اهتمام المسلمين شعبا وحكومة بالعلم والمعرفة والدراسة و البحث العلمي في كل زمان ومكان منذ ظهور الإسلام .

ولا يخفى علينا أن المساجد في الإسلام هي التي كانت المراكز العلمية الأولى في بلاد المسلمين ، وكانت نواة منارة علم وإشعاع في البداية ، ثم تعددت مراكز العلم من كتاتيب و حوانيت الوراقين ومنازل العلماء ومجالس الخلفاء ، ثم نشأت المدارس العلمية النظامية ، ثم بدأت في الظهور المعاهد والكلليات والجامعات في العالم الإسلامي .

ولقد بدأ المسلمون يؤسسون الجامعات في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، استهلكت في بغداد أول الأمر (١) ثم أقيم جامع القرويين في فاس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩م وجامع قرطبة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، والأزهر في القاهرة عام ٣٥٨ هـ / ٩٧٢م (٢) ثم تتابعت الجامعات في المدن الإسلامية الأخرى شرقا وغربا ، أما في أوروبا فان أولي الجامعات ظهرت بعد ذلك بوقت متأخر نسبيا ، وعلي سبيل المثال فان جامعات بولونيا وباريس ومونبليه لم تظهر قبل القرن الحادي عشر (٣) بل لم تعرف أوروبا الجامعات لأول مرة إلا في القرن الثاني عشر ، عندما نشأت جامعة باريس في فرنسا وجامعة بولونيا في إيطاليا وعنهما تفرعت بقية الجامعات في الغرب الأوربي. (٤)

وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي أن مؤسسة الجامعة هي من المبتكرات الخالصة للحضارة

(١) كب، ستانود: المسلمون في تاريخ الحضارة ، ترجمة : محمد فتحي عثمان ، ط ١ ، جدة : الدار السعودية

للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ص ١٠٤-١٠٥

(٢) يونغ ، لويس : العرب و أوروبا ، ترجمة : ميشيل أزرق ، ط ١ ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ،

١٩٧٩م ، ص ١٣١

(٣) يونغ : العرب و أوروبا ، ص ١٣١

(٤) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : المدنية الإسلامية و أثرها في الحضارة الإسلامية ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو

المصرية ، ١٩٨٢م ، ص ١٧٣

الإسلامية،(١) وأن العالم الإسلامي عرف الجامعات والحياة الجامعية والنظم المرتبطة بها قبل الغرب الأوربي بمئات السنين ، (٢) وأحسن مثال لهذا المدرسة المستنصرية التي أسست في بغداد عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م ، فهي تمثل صورة رائعة للتنظيم الجامعي في البلاد الإسلامية ، والتي كانت تمتاز بفخامة مبانيها و اتساع أروقتهها وغنى مكتبتهها بالمؤلفات التي عاجلت مختلف صنوف المعارف ، وقد رتبت الكتب في تلك المكتبة بحيث يسهل الرجوع إليها لقراءتها أو نسخها ، ولم تبخل إدارة المدرسة علي الطلبة بما احتاجوا إليه من أوراق وأقلام و مسارج للإضاءة ، كما تم تزويد المكتبة بصهاريج خاصة لتبريد مياه الشرب ، وساعة مائة عند مدخل البهو الكبير ، كما كانت تصرف مرتبات شهرية ثابتة للأساتذة والطلبة ، وكان يوجد مطبخ للمدرسة يمد الطلاب والمدرسين بالوجبات اليومية من الخبز واللحم وغيرها من ألوان الطعام ، وملحق بالمدرسة حمام للطلاب ومشفى أو بيمارستان له طبيب خاص يحضر كل صباح ليظمن على الطلبة ، ويصف للمرضى ما يلزمهم من دواء يعد خصيصا لذلك المشفى . (٣)

ويتضح مما سبق أن الجامعات الإسلامية عرفت منذ إنشائها قسطا من نظم المدن الجامعية ، و أنها كانت توجد لوائح وأنظمة لتنظيم شؤون مختلف أقسامها من الدراسة والقبول والمكتبة والصحة وغيرها ، وكان على جميع منسوبيها من طلاب وأساتذة وإداريين إتباع تلك الأنظمة وعدم الإخلال بها ، وخلاصة الكلام أن جميع الأمور المتعلقة بالجامعة كانت مرتبة ومنظمة .

أما الآثار التي تركتها الجامعات الإسلامية على زميلاتها الجامعات الأوربية والنظم التي استقتها الأخيرة من الأولى فهي كثيرة و واسعة ومتعددة ،وهى واضحة جدا ولا سبيل إلى إنكارها ، وقد اعترف بها أهل أوربا بأنفسهم كما سيأتي ، ولا يمكن حصرها في هذا البحث الموجز ولذا نشير إلى أهمها كما يلي:-

(١) مواد التعليم : ومن أكبر الآثار وأجلها التي تركتها الجامعات الإسلامية على أخواتها من الجامعات الأوربية هي في مواد التعليم ، فنرى أن الكتب والمؤلفات الكبيرة التي كانت تدرّس في الجامعات الإسلامية هي نفسها كانت تدرّس في الجامعات الأوربية ، وكانت الكتب العربية ولا سيما العلمية المترجمة المصدر الأساسي و الوحيد تقريبا للتدريس في جامعات أوربا لمدة خمسة أو ستة قرون ، فعلي سبيل المثال لا الحصر كانت كتب الرازي وعلي بن العباس و ابن سينا و أبي القاسم الزهراوي وغيرهم من الأطباء مرجعا للدراسة في كليات الطب إلي وقت قريب جدا ، وخاصة كتب ابن سينا ظلت مرجعا عاما للطب ستة قرون ، وبقيت أساسا للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسا و إيطاليا ، وكان طبعتها يعاد حتى القرن الثامن عشر ، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة مونبيلية إلا منذ خمسين سنة .(٤)

(١) يونغ:العرب و أوربا ، ص ١٣٠

(٢) عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ١٧١، أوربا العصور الوسطى ، ج٢، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ،

١٩٨٠م، ص ٥٢٦

(٣) عاشور: المدنية الإسلامية ، ص ١٧١-١٧٢، أوربا العصور الوسطى ، ٥٢٧/٢

(٤) لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زُغَيْتِر، د. ن. د.ت. ، ص ٤٨٨-٤٩٤

كما كانت تدرّس كتب ابن حيان في الكيمياء ، ومؤلفات الأسطرخري و الإدريسي في الجغرافية ، ومصنفات الخوارزمي وأبناؤه في الرياضيات والعلوم الأخرى ، وكتب الغزالي والكندي والفارابي وابن رشد في الفلسفة ، وتصنيفات ابن الهيثم في الفيزياء ... وهكذا

وهذا يدل علي النفوذ والتأثير القوي للجامعات الإسلامية وعلماءها علي جامعات أوروبا وعلماءها حتى في مواد الدراسة ومناهجها، يقول غوستاف لوبون: " ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر علي نسخ كتب العرب ، وعلي كتب العرب وحدها عول روجر بيكن و ليونارد البيزي و أرنو لد الفيلنوفي و ريمون لول و سان توما و ألبرت الكبير و الأذفونش القشتالي الخ ، قال مسيو رينان : إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء ، و إن سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد . " (١)

(٢) **نظام المعيد** : عرفت الجامعات الأوربية هذا النظام في العصور الوسطى ، ولكن ما زال معمولا به في العصور الحديثة، عرفه العرب من قبل في مدارسهم و جامعاتهم ، فأنشأوا يعينون معيدا لكل مدرس ليعيد علي الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس حتى يفهموه ، كما يشرح لهم ما يحتاج إلي الشرح . (٢)

(٣) **مكانة الأساتذة** : كما أجمعت المراجع العربية علي أن وظيفة التدريس في الجامعة أو المدرسة الإسلامية ظلت جليلة القدر ، يخلع السلطان علي صاحبها ، كما يكتب له توقيعاً من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يقوم بتدريسها المدرس ، فإن الكتاب الأوربيين أجمعوا أيضا علي أهم ما امتازت به الجامعات الأوربية في العصور الوسطى أن الأستاذ في الجامعة كان له نفوذه ومكانته وقوته . (٣)

(٤) **الرحلة العلمية** : كما كان تنقل الطلبة في العالم الإسلامي من بلد إلى آخر سعياً وراء أستاذ مشهور أو محدث ذائع الصيت لأجل حصول العلم عادةً متبعةً وأمرأ مألوفاً ، فإنه أصبح من الأمور المألوفة أيضا في الحياة العلمية في أوروبا أن يرحل الطالب من جامعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ليأخذ العلم علي مشاهير أساتذة عصره . (٤)

(٥) **نظام الإجازة** : ومن المعروف عن نظم التعليم الإسلامية أن الطالب كان إذا أتم دراسته و

---

(١) لوبون: حضارة العرب ، ص ٥٦٨

(٢) عاشور: المدنية الإسلامية ، ص ١٧٣-١٧٤ ، أوروبا العصور الوسطى ، ٥٢٧/٢-٥٢٨

(٣) عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ١٧٤ ، أوروبا العصور الوسطى ، ٥٢٨/٢

(٤) عاشور: المدنية الإسلامية ، ص ١٧٤ ، أوروبا العصور الوسطى ، ٥٢٨/٢ ، يونغ ، العرب و أوروبا ، ص ١٣٢

تأهل للفتيا والتدريس ، أجاز له أستاذه وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة ، كذلك فإن الجامعات الأوروبية التي نشأت في أواخر القرن الثاني عشر وضعت نظاما يكفل للطالب الحصول على شهادة أو ترخيص بالتدريس بعد أن يجتاز الاختبار .(١)

ويرى جيوم أن كلمة بكالوريا (Bachelor) في اللغة الإنجليزية المعاصرة ما هي إلا تحريف للأصل اللاتيني بكالوريوس (Baccalareus) أي الإجازة الجامعية الأدنى التي يحملها الطالب ، وهذه الكلمة اللاتينية ليست إلا تحريفاً للعبارة العربية (بحق الرواية) والتي تعني حق التعليم بتحويل من الغير.(٢)

(٦) **الزى الخاص** : كانت بعض الجامعات الإسلامية تلزم الأساتذة والطلاب باستخدام أردية خاصة خلال المحاضرات أو بعض الأعمال الإدارية ، وإن لبس الرداء الجامعي المميز كان عادة متبعة في أهم مراكز التعليم في البلاد الإسلامية قبل أن يصبح عادة في الجامعات الأوروبية .(٣)

(٧) **انتظام الطلاب** : كان الطلاب في الجامعات الأوروبية ينتظمون في مجموعات بحسب جنسياتهم تسهيلاً لاستيعابهم في الجامعة عملاً بنظام أروقة الأزهر ، فعلى سبيل المثال هناك في الأزهر رواق المغرب أو العراق أو مصر العليا ... وهكذا ، ومثل ذلك في جامعة باريس هناك مجموعة الطلاب الإنكليز ومجموعة الفلمنك ... وهكذا ، وما زالت بقايا هذا النظام متبعة في جامعة أكسفورد ولنكن و رستر و هارتفورد ... الخ .(٤)

(٨) **العناية الفائقة بالكتب والمكتبات** : الكتب والمكتبة جزء لا يتجزأ لأي مؤسسة تعليمية ، وهي الأداة الأولى للتنقيف والإطلاع والتدريب ، ولها دور كبير جدا في نشر المعرفة والثقافة ، ولذا من هنا ارتبطت المكتبة بالجامعة ولا يتصور وجود جامعة بدون مكتبة ، ومن هنا اهتم المسلمون بها اهتماما فائقا منقطع النظير في جميع العصور ، وأنشأوا مكتبات خاصة و عامة ، ولم يقتصر الأمر على العلماء وعامة المسلمين فقط بل كان الملوك والأمراء يفاخرون بجمع الكتب ، حتى صار لكل خليفة في بغداد والقاهرة وقرطبة مكتبة ضخمة .

وكانت هذه المكتبات العامة و الخاصة تضم مئات الآلاف من الكتب في الفنون المختلفة ، وكانت مجهزة ومنظمة ، وكانت مزودة بكل ما يحتاج إليه طلاب العلم من حبر وأقلام ومحابر و ورق ومياه

(١) عاشور: المدينة الإسلامية ، ص١٧٥ ، أوربا العصور الوسطى ، ٥٢٨/٢-٥٢٩

(٢) عاشور: المدينة الإسلامية ، ص١٧٥ ، يونغ : العرب و أوربا، ص١٣٣ ، عاشور: أوربا العصور الوسطى

٥٢٩/٢ ،

(٣) يونغ : العرب و أوربا ، ص١٣١ (٤) يونغ : العرب و أوربا، ص١٣١

باردة وغير ذلك .

بينما كانت المكتبات في أوروبا قليلة الكتب بل فقيرة إلى حد كبير ، وكانت المدارس نادرة ، وكانت الفوضى تسود الجامعات، فالكتاب المقدس كان يكاد لا يوجد خارج الأديرة ، والقيام بنسخه يقتضي عاما ، وكانت كتب العلم نادرة ومرتفعة السعر ، وكانت أغنى مكتبة في أوروبا مكتبة كنيسة كتربري تحتوي على خمس آلاف كتب فقط عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م ، أما غيرها من المكتبات الكبيرة فكانت لا تحتوي أكثر من مائة مجلد مع استثناء مكتبة كلوني (Cluny) التي حوت في القرن الثاني عشر خمس مائة وسبعين كتابا فقط (١).

وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى عناية المسلمين بالكتب والمكتبات ، ووضع النظم التي تكفل الاستفادة من هذه الكتب بأقصى درجة ممكنة و مما كان له أكبر الأثر في نفوس أهل أوروبا الذين أتاحت لهم فرصة مشاهدة تلك المكتبات الضخمة ، ومن هنا أثرت المكتبات الإسلامية الجامعية في مكتبات أوروبا من حيث النظم والترتيب والاهتمام .

ويظهر مما سبق من الشواهد والتأثيرات أن الجامعات الأوروبية أخذت كثيرا من التنظيمات والتقاليد من الجامعات الإسلامية ، ولا يزال بعضها معمولاً به حتى اليوم، وهذا شيء لا يقبل الجدل والنقاش ، وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، لأن الجامعات الإسلامية سبقت زميلاتها الجامعات الأوروبية قرنا من الزمان أو أكثر، وقامت على أنظمة دقيقة ، وجاء الطلاب والبعوث من أوروبا ودرست فيها ، وشاهدوا هذه النماذج الزاهرة من الجامعات الإسلامية فلا بد أن يتأثروا بها .

وفي ختام هذا المبحث أنقل كلام بعض علماء الغرب الذين اعترفوا فضل المسلمين على الحضارة الأوروبية بما فيها التعليم والجامعات ، دليلا على ما سبق و منطلقا من المثل الذي يقول : والفضل ما شهد به الأعداء :-

١- تقول المستشرقة الألمانية زغريد هونكه " لقد قدم العرب بجامعة التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع ( الميلادي ) ، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عددا من الغربيين من جانبي جبال البرانس ظل يتزايد حتى صار تيارا فكريا دائما ، فقدّم العرب بها للغرب نموذجا حيا لإعداد المتعلمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي ، لقد قدمت تلك الجامعات بدرجاتها العلمية وتقسيمها إلى كليات واهتمامها بطرق التدريس للغرب أروع الأمثال ، ولم تقدم هذا المظهر فقط بل وفرت له كذلك الباب : مادة الدراسة." (٢)

(١) الطويل ، توفيق : الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية دراسة مقارنة ، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، تاريخ النشر: بدون، ص ١٤٠-١٤١

(٢) هونكه، زغريد : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، مراجعة: مارون عيسى الخوري ، ط ٨ ، بيروت : دار الجيل و دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م ، ص ٣٩٨

٢- ويقول غوستاف لوبون: " ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ، كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أوروبا من هذه الناحية ، و أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون ، وأنا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة". (١)

٣- ويقول سيديو: " إن إنتاج أفكار العرب الغزيرة ، و مخترعاتهم النفيسة تشهد بأنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء". (٢)

٤- ويقول ريبون ليفي أن ملامح ذات بال يبدو أنها استعيرت من المدارس النظامية إلى الجامعات الأوربية التي ظهرت مبكرة. (٣)

٥- ويقول العالم المؤرخ الفيلسوف سارتون مبنيا أثر الإسلام والمسلمين لا على الحضارة الغربية فحسب بل على الحضارة الإنسانية جمعاء " المسلمون عبا قررة الشرق في القرون الوسطى ، لهم مآثرة عظمت على الإنسانية ، يتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قيمة ، وأكثرها أصالة وعمقا مستخدمين في ذلك لغتهم العربية ، التي كانت بلا مرء لغة العلم للجنس البشري ، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر ، لدرجة أنه كان يحتم على الشخص الذي كان يريد الإلمام بثقافة عصره ، وبأحدث ما يجري من علوم ، أن يتعلم اللغة العربية". (٤)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١) لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ، ص٤٣٧

(٢) ألدواليبي ، محمد معروف : موقف الإسلام من العلم و أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة

الإنسانية ، ط ١ ، القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠م، ص٥١

(٣) شريف ، م.م.: الفكر الإسلامي منابعه و آثاره ، ترجمة : أحمد شبلي ، ضمن موسوعة النظم و

الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ط٦ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨م، ص١٠٨

(٤) الملا، أحمد علي : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ط٣ (تصوير) ،دمشق: دار الفكر

للطباعة والتوزيع والنشر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١١٠-١١١

## المصادر والمراجع :-

- (١) ألدواليبي ، محمد معروف : موقف الإسلام من العلم وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية ، ط ١ ، القاهرة وبيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠ م .
- (٢) شريف ، م.م : الفكر الإسلامي منابعه وآثاره ، ترجمة : أحمد شلبي ، ضمن موسوعة النظم و الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ط ٦ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .
- (٣) الطويل ، توفيق : الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية دراسة مقارنة ، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، تاريخ النشر : بدون .
- (٤) عاشور ، عبد الفتاح : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠ م .
- (٥) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الإسلامية ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠ م .
- (٦) كب ، ستانود : المسلمون في تاريخ الحضارة ترجمة : محمد فتحي عثمان ، ط ١ ، جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- (٧) لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زُعَيْر ، د.ن.د.ت .
- (٨) الملا ، أحمد علي : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، ط ٣ (تصوير) ، دمشق : دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- (٩) هونكة ، زغريد : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، مراجعة : مارون عيسى الخوري ، ط ٤ ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .
- (١٠) يونغ ، لويس : العرب وأوربا ، ترجمة : ميشيل أزرق ، ط ١ ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م .

إعداد/ عبدالمنان محمد شفيق السلفي

الباحث بجامعة أم القرى